مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة

د. زاهية قدورة

لا نكون مبالغين اذا ذهبنا الى القول ان كل ما يكتب اليوم في بلادنا يدخل بشكل أو بآخر في نطاق الكتابة التاريخية . ذلك ان المنطلق الرئيسي في الفكر العربي المعاصر هو منذ سنوات عدة : الصلة بين حاضرنا وماضينا ، ومحاولة رسم صورة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبلنا القريب . وطبيعي أن يلعب الموقف الحاضر دورا رئيسيا في النظرة الى الماضي ، ذلك ان الضرورات اليومية والوطنية تواجه الفرد العربي باشكاليات ومصاعب تدفع به بشكل أو بآخر الى الاتكاء على الماضي الافضل التماسا للعزاء عن احباطات الحاضر ، أو التماسا لاسباب الفشل في الماضي ، وأخيرا توجهها للفهم الموضوعي للظروف كلها بما فيها من ايجابيات يمكن أن تكون مفيدة في مجال استمرارية الامة العربية وعمق حجمها التاريخي وامكانياتها المستقبلية .

وأود منذ البداية أن أقول ان الموقف الثالث هو الاكثر اثمارا في واقعنا الراهن ، وهو في الوقت نفسه الاقل ظلما للحقيقة التاريخية . ولا شك ان كلا من الموقفين الاول والثاني يتجاهل أمرا أساسيا هو القيمة الذاتية للتراث العربي بغض النظر عن تدخله في الموقف الحاضر أو عدمه . ثم ان التراث العربي (١) الذي يجري استخدامه لصالح هذه النزعة أو تلك يجري قبل ذلك تطويعه وتقويله هذا الامر أو ذاك ، وهكذا فان اللجوء الى التراث العربي سلبا أو ايجابا هو لجوء الى صورة تاريخية متكونة في أذهان هؤلاء المستفيدين ، تتجاهل الحقيقة التاريخية وتتشبث بصورة تاريخية تعتبرها مفيدة لا متجاوزة القيمة الذاتية للتراث في الوقت الذي لا تتجاوز فيه أيضا حقائق التراث التاريخية .

ان التسجيل النظري القديم الذي قام به مؤرخونا للاحداث السابقة لهم أو المعاصرة قاموا به في ظل ظروف معينة سياسية أو اقتصادية واجتماعية . وما ينطبق على الكتابة التاريخية ، ينطبق أيضا على سائر مناحي النشاط النظري العربي في مختلف الفنون والتخصصات ، وهكذا فاننا عندما ننظر الى الانتاج النظري حول حدث من الاحداث التاريخية علينا أن نضع في اعتبارنا أمورا أربعة : الحدث نفسه ، والارضية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية للحدث ، ثم الانتاج النظري حول الحدث ، والظروف التي تم فيها الانتاج النظري في هذا الحدث . ومن الحق أن يقال ان بعض هذه الشروط تتحقق على الوجه الاكمل في كتابات العديد من المستشرقين ، ورجال المادية التاريخية ، والتقليديين ، لكن تم في أكثر الاحيان تجاهل متعمد أو غير متعمد لعدة أمور اضافية تتصل بالمرحلة الراهنة هي : شخصية الكاتب المعاصر وأبعادها الايديولوجية ، وجوانب الموقف الراهن الذي يتم فيه الانتاج عن الماضي ، ثم الوثائق المتوفرة عن الحدث الماضي لدى الكاتب .

والواقع ان هذه الشروط المضافة هي التي تشكل المنزلقات الرئيسية بالنسبة للمعاصرين في الكتابة التاريخية عربا كانوا أم غير عرب . وعلى سبيل المثال فانه لا اعتراض لنا على دراسة ثورة الزنج من جانب مؤرخين كثيرين (٢) رغم ما في هذا الاهتمام من اصطناع أحيانا ، لكن لهذا الاصطناع أسبابه التي توضح ما نعنيه بمنزلق استخدام التاريخ لاهداف سياسية واجتماعية حاضرة . فالليبراليون والمحافظون من المؤرخين توصلوا الى نتيجة مفادها ان ثورة الزنج كانت تآمرا صريحا على الدولة الاسلامية لصالح أهداف شرية معادية للاسلام والمسلمين ، هذا في حين أكد الليبراليون على ان الوسيلة القمعية التي استخدمت ضد الثورة لم تكن هي الحل الامثل . بينما ذهب اليساريون على اختلاف مشاربهم الى محاولة تفسيرها في نطاق « نمط الانتاج الآسيوي » (٣) باعتبارها ارهاصا بنهاية مرحلة المجتمع العبودي أو حتى بدايته ، مشددين على الطابع القمعي والجائر للدولة الاسلامية ونظام الخلافة .

وعندما نعلم ان هؤلاء جميعا استندوا (أو هكذا يفترض) الى تقرير رئيسي عن القضية ورد عند المؤرخ المعروف محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) (٤) ندرك ان اختلاف التفسيرات للثورة المذكورة لا يعود الى اختلاف الوثائق المستخدمة بل الى اختلاف المنهج المستخدم

والمصلحة السياسية للكاتب عن ذلك. وما يقال عن « ثورة الزنج » يقال أيضا عن تمرد « بابك الخرمي » الذي رأى فيه أحدهم (٥) انتفاضة وطنية للشعب الاذربيجاني ضد الاستعمار العربي الاسلامي . بينما رأى فيه آخر ناصرا من جانب فئة صغيرة شريرة على العرب والمسلمين (٦) . وهناك تفسيرات معاصرة للتاريخ العربي الاسلامي تشمل كل ما هو تاريخي وهام في ماضينا مثل قيام نظام الخلافة (٧) ومقتل عثمان والصراع بين علي ومعاوية وعلي وعائشة (٨) ، وقيام الدولة العباسية (٩) ، وظهور الدويلات ، والصراع القوي بين المعتزلة والاشاعرة ، والشيعة والسنة ، والنضال ضد الغزو الصليبي والمغولي ، ثم قيام الدولة العثمانية ، والعلاقة بين العرب والترك، والعلاقة بين العرب والغرب. واشكاليات العلاقات الحديثة والمعاصرة مع الكتلتين .

ومع ان مقولتنا الاولى التي تدين الاتجاهين : التقديسي السلبي أو الذرائعي ، تعتبر تبسيطا أوليا لما يجري على ساحة الكتابة التاريخية ، لكن ذلك لا بد منه في الواقع مهما تجنبنا التبسيط ، لان الاتجاهات السائدة في الكتابة التاريخية عن ماضينا تنحل الى اتجاهين رئيسيين فعلا هما المذكوران سابقا. فالمتدينون والمحافظون يقدسون الماضي بكل ما فيه سعيا نحو عزائية صوفية هادئة أو أملا في اعادة التاريخ حيا في واقعهم المعاصر . ولا ريب ان حديثهم عن عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ليس أكثر من « صورة تاريخية » صلتها بالواقع أو الحدث التاريخي ضعيفة . وبالاضافة الى ذلك فان هذه النزعة تتضمن تسطيحا للتاريخ وتحويلا له الى مجموعة من الاحداث المنعزلة التي يصلها خط النور الالهي التاريخي ، وتختفي فيها السمات الشخصية للافراد ، وخصوصيات المواقف التاريخية المختلفة . ولو ذهبنا نقرأ ما كتبه محمد الخضري (١٠) وحتى عبد الحميد العبادي (١١) ومحمد حسين هيكل (١٢) عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لما استطعنا التمييز بينهما لو حذفت العناوين .

ورغم ان أكثر الذين يكتبون اليوم عن تاريخنا ويقومون بالتدريس في جامعاتنا خريجو جامعات غربية متقدمة ، الا انهم رغم ذلك ـ أو من أجل ذلك ـ ما يزالون ـ اذا تجاوزنا الشكل الظاهر ـ يدورون في قالب المقولات التقليدية الناتجة عن نظرة متخلفة الى الكتابة التاريخية ماهية ووظيفية واساليب . حتى أولئك الذين يدينون التراث بشكل أو بآخر لا يتخطون الاسلوب الهجائي الذي لا يقوم على معطيات موجودة تاريخيا بقدر ما يقوم على صورة ذهنية عن الماضي والحاضر والمستقبل تستمد عناصرها من نوازع شخصية أو فهم خاطىء لقضية العلاقة بين حاضر الامة وماضيها .

ولكي يكون الامر واضحا تماما سنتعرض هنا لمنهجين ما يزالان يسودان الكتابة التاريخية عندنا ، بل ان احدهما ساهم في نشأة تصورات معينة لدينا نحن ولدى الدارسين عن التاريخ العربي كله . المنهج الاول هو ما يمكن تسميته بمنهج المستشرقين ، والمنهج الثاني هو منهج الماديين التاريخيين الذي كثر الانتاج في نطاقه في السنوات الاخيرة .

وقد نكون غير دقيقين اذا اعتبرنا « المستشرقين » فئة واحدة ذات مصالح واحدة واتباع منهج واحد (١٣) . لكن ما لا شك فيه ان الدوافع الاولى للاستشراق القديم في أوروبا واحدة . فكما ذكر المؤرخ والمستشرق الالماني « فك » ، كانت البدايات الاولى للاستشراق مع ازدياد الاهتمام الاوروبي بالشرق (١٤) . وبالتالي زيادة المصالح الغربية فيه . وهكذا كانت مهمة المستشرقين الاوائل جمع أكبر قدر من المعلومات عن مواطن المصلحة في الشرق سعيا وراء تنمية هذه المصالح ورعايتها . وفي هذا السياق جاء اسهام المستشرقين البريطانيين في استعمار الهند. والهولنديين في استعمار اندونيسيا (١٥) .. لكن مصالح الدول الاوروبية في الشرق لم تكن متوازية أو متماثلة . كما ان الصراعات فيما بينها كانت تحدث تفاوتا في الادوار ، لذلك فقد كان موقف المستشرقين الالمان أقل مباشرة في علاقاتهم بالدولة العثمانية ، اذ ان الدولة الالمانية الجديدة التي انشئت عام ١٨٧٠ م كانت تريد عبر السلطنة أن تضرب المصالح الانكليزية والفرنسية في الشرق . بالاضافة الى ذلك دخلت اعتبارات دينية في الموضوع لم ترتبط دائما بمشروعات سياسية محددة . فقد اهتم دارسو العهد القديم من الالمان والاميركان بالتعرف على الديار المقدسة والادب العربي سعيا نحو فهم أدق للانجيل بقسميه . هذا في الوقت الذي كان فيه دوتي الرحالة الانكليزي (١٧) وهاليفي الفرنسي (١٨) ، يمهدان لدخول بريطاني وفرنسي الى اطراف الجزيرة العربية من وراء ظهر الدولة العثمانية .

وسار الامران بشكل متواز ، بل كانا يختلطان في كثير من الاحيان كما في شخصية ماسينيون الفرنسي (١٩) وهورغرونيه الهولندي (٢٠) وبيستون الانكليزي (٢١) وبيكر الالماني (٢٢) . وانفرد الالمان من بين المستشرقين تقريبا بالاقبال على نشر كتب التراث العربية الضخمة، فقد نشر دي غوبه (٢٣) وفستنفلد (٢٤) ونولدكه (٢٥) وفلهاوزن (٢٦) نصوصا ودراسات كثيرة أضاءت نواح في تاريخنا وفكرنا كانت ما تزال في زوايا الغموض والنسيان . لكن بيكر الالماني الذي كان بين أول المهتمين بالنظام الاداري للدولة العربية الاسلامية والخلفيات الاقتصادية والاجتماعية للنظام السياسي كان بين المخططين للمصالح الالمانية في الشرق ، ثم صار وزيرا للثقافة والانباء بعد الحرب الاولى (٢٧) . وقد

أنهت الحرب الاولى المصالح الالمانية في الشرق فأعادت الاستشراق الالماني الـــى منطلقاته الاولى ذات الطابع الاكاديمي البحت ، هذا اذا تجاوزنا مؤقتا محدوديـــة آفاق المنهج الفيلولوجي الذي كـان مسيطرا على هـذا الاستشراق من ناحيـــة ثم اضطرار بعض المستشرقين الالمان الى مجاراة النظام الفاشي وأفكاره عن الشرق في فترة الحكم النازي بألمانيا (٢٨) .

لكن في الوقت الذي كان فيـه الاستشراق الالماني يعيد البحث عن نفسه بعد ضربة الحرب الاولـى كـان الاستشراق الاميركي يتقدم وينمو مـع مصالح الشركات الاميركية في الشرق ، ومع فرار مستشرقين المان كبار من أصل يهودي الى الولايات المتحدة عند صعود النازي الى سدة السلطة . ويمكننا كتاب الاستاذ ادوار سعيد الاخير من تتبع مراحل الاستشراق المذكور واتجاهاتـــه الحاضرة خصوصا بعد قيام اسرائيل في وطننا العربـي واشتداد ساعد الحركة الصهيونية في الغرب والولايات المتحدة والشرق الاوسط .

والواقع انـه فيما يتصل بالمستشرقين الفرنسيين والانكليز (وكثير منهم ذو أصول يهودية) أضيفت الـى ازدواجية شخصياتهم (كأكاديميين ومتعاونين معالانظمة والقضايا الشرقية) أبعاد جديدة تتضمن ولاء لاسرائيل أيضا أو لحركة الصهيونية على الاقل . وتبرز في هـذا النطـــاق شخصيات شاخت وغرينباوم وغويتاين فـي الولاياتالمتحدة ، ورودنسون في فرنسا ، وبرنارد لويس في بريطانيا . فقد انعكست صهيونية هؤلاء جميعا ــ وقد سادوا الاستشراق في الولايات المتحدة وبريطانيا حتـى الستينات ــ على ابحاثهم حتى في النطـــاق التاريخي البحت . وقد حـــاول كلّ من العروي وغران وادوار سعيد تحليل ظاهرة غرينباوم ، في حين حظيت كتابات برنارد لويس بدراسة دقيقة من جانب ادوار سعيد في نطاق عمله الضخم عن الاستشراق .

والآ ، ماذا عن منهج أو مناهج المستشرقين هؤلاء ؟ في محـال الاستشراق الالماني سيطر المنهج الفيلولوجي الذي يقوم على تشريح دقيق للواقعة التاريخية في كافة الجوانب . لكن الواقعة التاريخية تبحث في شكل منعزل عن تتابع الاحداث أو عـــن السياق البيئي (٢٩) . فاذا جرى البحث في أسباب ظاهرة من الظواهر في نطـاق التاريخ الاسلامي فان مقارنات خادعة ذات طبيعة لغويـة لفظية بحتة كانت تعقد للتدليل على الاصول غير العربية لهذا الامر أو لذاك . ومع ان ذلك يمكن اعادته جزئيا الى قصور المنهج الفيلولوجي رغم دقته الظاهرة فلا شك ان الايديولوجيات العنصرية والحضارية التي انتشرت فـي أوروبا أواخر القرن التاسع عشر تركت آثارا «واضحة» في دراسات المستشرقين ، هذا بالاضافة الى طبيعـــة ثقافتهم في أوروبا الامبريالية الصاعدة ، واهتماماتهـم التي لا تكاد تنتهي بالعهد القـــديم بحكم بروتستانتيتهم المتشددة .

اما على الجانب الآخر فقد ركز مستشرقو فرنسا وانكلترا ثم أميركا دراساتهم في مجالين : مجال جمـع المعلومات والرحلات في الاقطـــار الشرقية ، والاهتمام بالابحاث التاريخية ذات المغزى الحضاري الشامل . وفي هذين النطاقين كان يجري القاء الضوء على ظواهر جانبية وتكبيرها وتجسيمها بحيث تتراجـــع أمامها المجالات الاخرى جميعا ، وذلك مثل التصوف والاصول اليونانية للفلسفة العربيـــة ، ثم التخلف القـــاتل للمسلميـن الشرقيين (٣٠) . في هـــذه الناحية حدثت الصدامات بينهم وبين الافغاني وعبده ورشيد رضا (٣١) دون أن يثمر النقاش شيئا ايجابيا ، لان المستشرقين هؤلاء لـم يكونوا يكتبون رأيا علميا مطروحا للنقاش بل يشاركون في رسم توجهات دولهم تجاه الشرق العربـي والاسلامي . وتتضح فضيحة هـــذا الاتجاه في ذراه عند غرينباوم ولويس حيث تجري مداورات ومغالطات طويلة ليقال في النهاية ان الاسلام رجعي ومتخلف بطبيعته ، وان تخلف الشرق راجع اليه والى عدم قبوله بالتالي للحضـــارة الغربية ، وهكذا فتخلفه ابدي وآمال التقـدم ضعيفـة بل معدومة (*) .

ولا يخلو الامر من بعض ذوي النوايا الحسنة مـن الغربيين غير الاكاديميين الـــذين يتجاوزون تدقيـق الفيلولوجيين ويدينـــون لاعلمية مستشرقي الصهاينـة والمركزية الاوروبية ، لكن هؤلاء يعودون بدورهم للوقـوع فـــي أسر تقريظية مسرفة تفقـــد ايجابيتهم قيمتهـا وتاريخيتها .

ان تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب هو الشرط الضروري والاول لبروز استشراق أكثر موضوعية ، وما لم يحدث ذلك فان جهود بعض عمالقـــة المستشرقيـن الموضوعيين ستبقى فردية ومشوبة بالمخاطر .

قلنا ان الاتجاه المادي التاريخي في الكتابة التراثية عندنا لقي أرضية واسعة خلال السنوات الاخيرة ، ورغم السذاجة الظاهرة التي برزت في أعمال من هذا الاتجاه مثل « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح، و « ابن خلدون : رجل في القاهرة » لرشدي صالـح ، لكن مزيدا من الدارسين العرب يتجه تدريجيا في اتجاه تفسيرات مادية للتراث . ايجابية هذا الاتجاه تكمن في مقابل لاتاريخية الاتجاه المتراجع ، كما تكمن في محاولته فهم الحدث من كافة الجوانب بشكل جزئـي ودقيق ، هذا وان كان التركيز ينصب على النواحي الاقتصاديـة في الغالب . وهكذا فان ثورة كثـــورة صاحب الزنج ،

(*) قارن بدراسات العروي عن غرينباوم ودراسات ادوار سعيد عن برنارد لويس .

وتمردا كتمرد المرجئة في خراسان ؛ لا بظلان ظاهرتين غامضتين معلقتين بالمذهب الديني لهذا الرجل أو ذاك . اننا نعلم ان المرجئة (٣٣) الذين كانوا حزبا سياسيا دينيا انما انتصروا للاسلام في تمردهم لا لانه دين فقط بل لدعوته الى المساواة بين المسلمين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ؛ ولانه يرفع بالتالي الاضطهاد عن الموالي الذين دخلوا في الاسلام وتربوا في أحضانه . فاذا علمنا بالاضافة الى ذلك ان مادة هذا التمرد كانوا من العرب الذين عاشوا في خراسان وامتزجوا بالسكان المحليين أمكننا ان نفهم خلفية الحركة العباسية التي قامت على نفس الاسس ؛ أسس التحالف بين العرب المبتعدين عن القرار السياسي والرفاه الاقتصادي في خراسان ؛ والفرس من الفلاحين ومثقفي الموالي ممن تعربوا منذ فترة (٣٤) .

ما دام الامر محصورا في فهم حركة ما في نطاق أصولها السياسية والاجتماعية . لا نلحظ قصورا واضحا في تبين هذا الامر أو ذاك من قبل الماديين التاريخيين ، هذا اذا تجاوزنا تغافلهم عن دور الايديولوجية الدينية في جانبها الايجابي في العصور الوسطى الاسلامية .

لكن القضية لا تبقى على نفس المستوى من الوضوح والدقة عندما يحاول المستشرق الماركسي أو المتمركس العربي أن يقدم دراسة تغطي مساحة واسعة زمنيا . هنا يتدخل التزامه الفكري فيفرض عليه التحرك في نطاق « نمط الانتاج الآسيوي » (٣٥) ونطاق مراحل التطور الاجتماعي المعروفة عند الماديين الجدليين . بل اننا نستطيع المضي أبعد من ذلك لنقول ان اكثر الدراسات التي جرت حتى الآن من منطلق المادية التاريخية في رأينا كانت تهدف الى اثبات صدق الاشكال الايديولوجية الماركسية أكثر مما كانت تريد انماء علاقتنا بتاريخنا والاسهام في فهم مضامينه بشكل أكثر علمية وموضوعية . ونحن نملك على ذلك أكثر من دليل ؛ فلماذا هذا الاهتمام بالبابكية والخرمية وثورة الزنج والقرامطة ؟ لقد ظل هؤلاء جميعا أقليات معزولة بينما بقيت جماهير الاكثرية بعيدة عن أفكار هؤلاء وأسباب سخطهم وتمردهم . هذه الاكثرية هي التي صنعت التاريخ وما تزال . ولقد كان لها مثقفوها ولها تمرداتها وثوراتها ولها أفراحها وأحزانها ، ولها تناقضاتها الداخلية ؛ فأين هو الجهد المصبوب لفهم ذلك كله ؟ بدلا من هذا تجري الكتابة طوال الوقت عن ثورة صاحب الزنج للقول في النهاية أن هذه الثورة كانت بداية لمرحلة المجتمع العبودي أو نهاية له وبداية للمجتمع الاقطاعي . انه لما له دلالته أن يكون أول من كتب عن الحركات الشعبية في بغداد (حركات الاكثرية) ليس ماركسيا (٣٦) بل مستشرق فرنسي يعتبر معتدلا نسبيا في الظاهر .

وواضح ما لهذا الاتجاه التبشيري من سيئات في مجال كتابة التاريخ . ذلك انه عندما يريد أحدنا أن يدلل على فكرة واضحة مسبقة في ذهنه فان الواقعة التاريخية لا تريحه بل تزعجه ؛ الا اذا دار حولها أو فسرها تفسيرا قسريا بما يتفق وهدفه . لكن القضية لا تبقى في هذه الحدود . فكثير من الكتاب في هذا الاتجاه لا يريدون تدليلا تاريخيا على صحة النظرية الماركسية وشمولها فقط . بل يريدون خدمة أهداف سياسية واجتماعية حاضرة . كثيرا ما نسمع القائلين : « علينا أن لا ندع تاريخنا في يد الرجعيين واليمينيين التقليديين » . ونسمع أيضا : « دراستنا للتراث تستهدف الحاضر ؛ تستهدف النضال اليومي للحركة التحررية العربية » . ولو كان ذلك يعني محاولة فهم جذور المشاكل المعاصرة في وطننا العربي من خلال دراسة تاريخية لها لكان أمرا مشروعا ، لكن القارىء للدراسات من هذا النوع يلاحظ هذا الاتجاه الى التأكيد على تفسير الحاضر بالحاضر ؛ واستخدام الماضي لتبرير الحاضر أو ادانته أو الاستتار به .

وتتفرع على ذلك عيوب شكلية ومنهجية وفردية تجعل من هذا الاتجاه في تفسير التاريخ العربي الاسلامي سلبيا في مجمله . فمعظم الذين يمارسون هذا المنهج حتى الآن لا يعرفون الماركسية جيدا أو لا يعرفون التراث جيدا أو هما معا . والا فما معنى تسمية البابكية ثورة من جانب « الشعب » الاذربيجاني على الخلافة الجائرة ؟ وهل كان هناك بالمقاييس الماركسية شعب أذربيجاني بالمعنى المعروف للشعب ؟ ثم ما معنى القول ان الفارابي كان ثوريا ولصالح المسحوقين ؟ وما معنى القول ان تاريخ الامم والملوك و « كتاب الاموال » مجهول المؤلف ؟ ان كثيرا من هذه الدراسات تفتقر الى أبسط الادوات المنهجية .. أوليات معرفة الموضوع الذي يكتب عنه الباحث .

وعلى محاولة تعميم النظرية الماركسية تتفرع عيوب منهجية متضامنة (٣٧) ؛ وهي حرق المراحل ودراسة التراث العربي كله مرحلة واحدة . رغم عدم توفر الادوات المنهجية ؛ وخروج ذلك على طاقة الفرد بل الجماعات في هذه المرحلة ؛ لكن هموما جانبية مثل اثبات النظرية وقطع الطريق على التقليديين والمستشرقين هي التي تفرض مثل هذا النهج .

لقد درسنا نموذجين من نماذج دراسة الفكر العربي التاريخي واعتبرناهما غير علميين رغم اختلافهما في الجوهر . لكن : ما هو البديل ؟ لقد أصبح النهج التقليدي عاجزا ؛ كما ان النهج الاستشراقي والتفسير المادي للتاريخ لم يقدما حتى الآن الا نماذج سلبية . في ظل هذين الاعتبارين ؛ وظل ظروف المرحلة القومية المعاصرة ؛ لا ندعي اننا نملك تصورا متكاملا ، لكننا نملك

معالم رئيسية نابعة من التوجه النقدي للنهجين الآخرين، ومن الادراك العميق لطبيعة المرحلة الراهنة .

أتقدم بالاقتراحات التالية :

١ ـ الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية والتحدث التاريخي ؛ ومحاورة تاريخنا هذا ؛ لان ذلك في تصوري يشكل جوهر العلاقة بيننا وبين تراثنا .

ويتضمن هذا المبدأ اصغاء تاما لنداءات الوثائق التاريخية ودراستها في نطاق عصرها ، وظروفها ؛ ونشأتها ، وموقعها الاجتماعي والسياسي والتاريخي ؛ لينصب ذلك كله في النهاية في خدمة موضوعية الحقيقة التاريخية والقاء الاضواء عليها ، لا لشيء الا لان الحياة المعاصرة العربية السوية في تلك التي تقوم على أساس حقائق تاريخية لا صور وأوهام ايديولوجية تلبس لباس التاريخ .

٢ ـ الانطلاق من عدم وجود انقطاع في حياة الامة العربية الاسلامية من الناحية التاريخية ، ومن الضروري دراسة التاريخ كوحدة متماسكة بجوانبه المتعددة : سياسية وادارية واجتماعية واقتصادية وفكرية في آن واحد لكل فترة من الفترات ؛ على أن تكون هذه الدراسة شاملة جميع طبقات الشعب ؛ ونمط حياتهم ودورهم في المجتمع .

اذ ان هناك جوانب كثيرة من تاريخنا لم تستكمل بعد . ولم تكشف الحقيقة عنها .

هذا بالاضافة الى ضرورة دراسة تاريخ الغرب . والمقارنة بينه وبين تاريخنا العربي .

٣ ـ الاهتمام بدراسة الحضارة العربية في جميع مجالاتها وانجازاتها لا التركيز على الناحية السياسية ؛ فذلك يفقد التاريخ العربي جوهره ؛ ويعطل دوره . اذ ان الحضارة العربية الاسلامية التي لها سمات الحضارة الشاملة المتكاملة والتي ما تزال مستمرة حتى اليوم في محيطنا تملك منطقها الخاص ؛ وقيمتها الذاتية في المرتكزات الفكرية ، وفي فهم العالم وفي التعامل معه . ولكي يمكن استيعاب مدلولات هذه الحضارة ؛ ومستنداتها وروحها ؛ لا بد من الانطلاق من منطقها الخاص والداخلي ؛ وذلك يجنبنا مخاطر اللجوء الى مفاهيم ومنطلقات من خارج نطاق الحضارة التي ندرسها. ويجنبنا بالتالي الوقوع في أخطاء بعض المستشرقين والماديين التاريخيين .

وعلينا هنا أيضا أن نبين للعالم دور الحضارة العربية في تطور الحضارة الانسانية . وهذا ضروري بالنسبة لتعاملنا مع الغرب .

٤ ـ وعلينا أن نبرز أو نركز على المقومات والاتجاهات القومية والوحدوية بالذات ؛ فالموضوعية والنزاهة لا يتنافيان أبدا مع قومية التاريخ ؛ لكن يحتاجان الى عقول عربية تتسم بالعلم والتجرد والصبر والدقة ؛ وقلوب عربية تمتاز برهافة الحس ، وصفاء الاتجاهات ؛ تلتمس جذور الحقيقة والنظر الى أبعادها ، ثم التركيز على مقومات القومية العربية ، وعناصر الوحدة ؛ لان القومية والوحدة هما الاطار الوطني الذي يصهر أبناء الامة على مختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة ؛ فلا يعود هناك من مجال فيه للعنصرية والطائفية .

ولو فعلنا ذلك لوفرنا على أنفسنا اثارة الدعوات المشبوهة المزيفة ومخاطر التجزئة والطائفية والاقليمية، والعنصرية ؛ والانعزالية ، والتعددية ، وتحركات الاقليات .. كما يجري الآن في لبنان مثلا .

٥ ـ كما علينا أن ندرس بعمق وتحليل العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية والسياسية التي دفعت الى التجزئة وتمزيق كيان الامة ، ولا نغفل انه كان للاستعمار اليد الاولى ، والطولى ، في ذلك . وقد فعل ذلك في صور وأساليب مختلفة ، تجارية ؛ واقتصادية ؛ وثقافية ، ودينية ، ثم في حملات وحروب استعمارية سافرة ، وفي تحالفات ومعاهدات مشبوهة.

٦ ـ أقترح اقامة مؤتمر عام ١٩٨٠ ، اذا أمكن ، أو عام ١٩٨١ ؛ على الاكثر ، يكون موضوعه « الوطن العربي بين الوحدة والتجزئة » ، فيدرس مقومات الوحدة وايجابياتها ؛ وما تعود به على الامة والوطن ؛ كما يدرس مخاطر التجزئة وأسبابها ؛ وما أدت وما يمكن أن تؤدي اليه بعد ، المزيد من الانعكاسات السلبية على الوطن العربي .

وأشدد هنا أن تكون هذه الدراسات ، مبنية على أبحاث موثقة رصينة وجدية ؛ وعلمية .

٧ ـ اختيار لجنة عربية عليا ؛ معترف بها رسميا ، وممولة من الدول العربية ؛ تكون مهمتها انشاء « مركز التراث العربي » أو « مؤسسة التراث العربي » ، تقوم بوضع برنامج عمل ؛ عبر لجان متخصصة ؛ فنية ، ادارية ؛ ومالية ؛ ثم تقيم الحلقات والندوات لدراسة هذا البرنامج . ثم العمل على تنفيذ « كتابة تاريخ الامة العربية » .

الهوامش

١ ـ قارن بعدد فبراير من مجلة الطريق اللبنانية (١٩٧٩) حيث أبرز الدكتور احسان هذا المعنى بوضوح .

٢ ـ منهج بندلي جوزي وبوبوفتش وفيصل السامر وأحمد علبي ونزيه أبو نضال .

٣ ـ قارن بمحاولتي جوزي وعلبي على سبيل المثال .

٤ ـ تاريخ الامم والملوك (ط. لايدن ـ دي غويه) ٤ / ٨١٦ ـ ٨٥٦ .

٥ ـ حسين قاسم العزيز في « البابكية » (١٩٧١) .

٦ ـ د. فاروق عمر في مجلة « آفاق عربية » العراقية (تموز ١٩٧٧) .
٧ ـ أحمد عباس صالح : اليمين واليسار في الاسلام ، ٢٦ ، (مؤسسة الدراسات ١٩٧١) .
٨ ـ نبيه عاقل : الامويون ، ٤٨ ، (دمشق ١٩٦٨) .
٩ ـ « قيام الدولة العباسية » (بالالمانية ، ١٩٧٠) ١٧ ـ ٣٨ .
١٠ ـ الخلفاء الراشدون (١٩٤٦) .
١١ ـ الخلافة الراشدة (١٩٣٨) .
١٢ ـ حياة محمد ، حياة أبي بكر ، الفاروق .
١٣ ـ فارن بيوهان فك : الدراسات العربية في أوروبا (بالالمانية) ١٦ ـ ١٩ .
١٤ ـ الدراسات العربية ٨ ـ ٩ .
١٥ ـ قيصر مخول : الاسلام في اندونيسيا ، ٩٨ (الرائد العربي ، ١٩٦٩) .
١٦ ـ أولمان : دراسة العهد القديم من جانب المستشرقين (بالالمانية) ١ / ٦٧ (١٩٧٢) .
١٧ ـ فارن برحلته (مقدمة) ٦ ـ ٩ .
١٨ ـ فيسمان : اكتشاف الجزيرة (بالانكليزية) ٤٧ ـ ٤٩ (١٩٦٥) .
١٩ ـ فارن عنه مالك بن نبي في مذكرات شاهد القرن ، ٩٨ (١٩٦٤) .
٢٠ ـ فارن عنه : الدراسات العربية لـ « فك » ، ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
٢١ ـ فارن عنه المستشرقون لعقيقي ، ٢١٦ .
٢٢ ـ فارن عنه مجلة فكر وفن (م ٩ ، ١٩٦٤) .
٢٣ ـ فارن بالدراسات العربية في المانيا لبارت (ترجمة مصطفى ماهر) ٤٧ ـ ٥٠ .
٢٤ ـ الدراسات العربية لفك ، ٣٦ ـ ٣٨ .
٢٥ ـ مجلة جمعية المستشرقين الالمان / م ٤٦ (١٩٢٥) ، ٨٧ ـ ٩٩ .
٢٦ ـ مجلة جمعية المستشرقين الالمان / م ٤٨ (١٩٢٧) ، ٣٦ ـ ٣٩ .
٢٢ ـ فارن هامش رقم ٢٢ .
٢٨ ـ عن المستشرقين الالمان والنازي فارن ، هولدر ، المستشرقون الالمان (بالالمانية) ٨٨ ـ ٩١ .
٢٩ ـ فارن بنقد المستشرق الشاب ثبت لمناهج المستشرقين الالمان في « الاستشراق ، مفاهيمه وحدوده » (بالانكليزية) ، ١٨ ـ ٥٧ .
٣٠ ـ فارن بـ « الاستشراق » لادوار سعيد (١٩٧٧) ، ٤٦ ـ ٥٧ .
٣١ ـ د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري عصر النهضة (١٩٧٩) ص ٢١١ ـ ٢٤٧ .
٣٢ ـ مثل جوستاف لوبون وزيجريد هونكه .
٣٣ ـ فارن عنهم دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية) ، مادة « ارجاء » .
٣٤ ـ فارن بدراسة فاروق عمر عن « طبيعة الدعوة العباسية » .
٣٥ ـ فارن بمحاولات تجدد في هذا النطاق ، الدراسات التي ترجمها جورج طرابيشي بعنوان « نمط الانتاج الاسيوي » .
٣٦ ـ هو كلود كاهن .
٣٧ ـ في « من التراث الى الثورة » و « النزعات المادية » .

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١
بيروت ـ لبنان ـ تلفون ٣٤٤٩٩٨

يسرها ان تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته، شعره. عرض مشوق لافكار الشاعر واغراضه ومقاصده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر اجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية في ٢٠٠ لوحة اكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، اصدرتها مكتبة خياط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي اجمل هدية عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال اعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن اجمل آثار العالم الاسلامي.

تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك او مكتبك ، وتصور ادق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون والفنانون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، او من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33